الفصل الأول

توظيف أبيات المتنبي وتحوير معانيها

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

توظيف أبيات المتنبي وتحوير معانيها

لقد اختلفت آراء النقاد عن استحضار التراث وتوظيفه وتحويره واستلهامه وتحوير معانيه، وتوظيف مضامينه، فيرى أحدهم أن التراث "يعني استخدام معطياته استخداماً فنيّاً وإيحائياً وتوظيفها رمزياً لحمل الأبعاد المعاصرة للرؤية الشعرية للشاعر على معطيات التراث ملامح معاناته الخاصة، فتصبح هذه المعطيات معطيات تراثية معاصرة تعبر عن أشد هموم الشاعر المعاصر خصوصية ومعاصرة في الوقت الذي تحمل فيه كل عراقة التراث"[1]. ومع ذلك فإننا نتابع أثر المتنبي في شعر اليمن الحديث ونحن على ثقة من أن شعراء اليمن قد عمدوا إلى استحضار تراث هذا الشاعر وتوظفيه توظيفاً فنيّاً ونقصد بالتوظيف الفني: الاستخدام الواعي والخلاق لدرجة تصل إلى الإبداع في إعادة تشكيل المعطى التراثي على وفق رؤيا متميزة بخصوصية منفردة وبتقنية فنية عالية مع تحميله دلالات معاصرة، عاكساً مدى وعي الشاعر بتراثه .

على هذا فإن استحضار المعطى التراثي في الشعر"لا يعني أنّه قد عدَّ توظيفاً فنيَّاً، إذ إنَّ التوظيف الفني يعني الاستخدام الواعي والخلاق لدرجة تصل إلى الإبداع في إعادة تشكيل المعطى التراثي على وفق رؤيا شعرية خاصة بالشاعر، لما يتلاءم وطبيعة المعطى التراثي إلى جانب تحميله دلالات معاصرة جديدة لا تقف عند حدود العصر فحسب، بل إنها قد تتجاوزه"[2]. تفاعل الشاعر اليمني الحديث مع المتنبي تفاعلاً واضحاً وحاول أن يحاكي نصوصه الشعرية في كل المواقف والأحداث التي مر بها ويصور في الوقت نفسه عمق حالته التي كثيراً ما يعتريها الهم والسأم بسبب الوشاة والحساد، فضلاً عن الأعداء الأعاجم، وقد لجأ شعراء اليمن إلى توظيف

---

(١) توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر(مقال) د. علي عشري زايد، مجلة فصول، مجلد ١، عدد ١٩٨٠،١.

(٢) استلهام التراث في شعر عبد العزيز المقالح، خديجة حسين أحمد المغنج، ص٣٠٥.

البيت الشعري للمتنبي أو تحوير معانيه أو استلهامه أو تحوير جزئي لجملة أو لعبارة أو لمطلع القصيدة أو للجملة التي يبدأ بها هذا المطلع،ودليلنا على ذلك عبارته (واحر قلباه) التي تكررت كثيراً في الشعر اليمني المعاصر، فقد ضمنها عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، ليعبر عن عمق مأساته وحزنه العميق في قوله :

(واحر قلباه) من فقدي خائفة يعين في رفعها من ذلك النفقُ[1]

ولا شك في أن بيت المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من بهِ صممُ[2]

قد ضمن معناه عدد من الشعراء اليمنيين، فهذا الشاعر طارق عبد السلام كرمان يقول في قصيدته (يا مآذن صنعاء.. عانقي الحرما) يقول

يا صانع المجد في أرضٍ رسخت بها دهراً فأصبحت فيها الرمز والعلما

أنت الذي أبصر الأعمى صنائعه وأسمع القول منه الصم والبُكُما[3]

فالشاعر هنا مدح الرئيس صالح في حين ذهب المتنبي يفخر بنفسه، وفي بلاط ممدوحه سيف الدولة.

ويتكرر المعنى نفسه لدى الشاعر علي عبد الرحمن جحاف في قصيدته (يا قائد الخيل والفرسان)، إذ يقول:

أنا الذي تنصت الدنيا إلى لغتي إذا نطقت ويبكيها صدى شجني[4]

ويأتي المعنى أكثر قوة في قول الشاعر محمد أحمد منصور في قوله:

وأنا الذي إن قلت شعراً جلجلت أصداؤه كالرعد في الآفاقِ[5]

وفي هذه القصائد نلمس أثر المتنبي في كثير من أبياتها، وعلى وجه الخصوص في سيفيَّاته، فما من قصيدة من ديوان (القائد في وجدان الشعب)، ومثله كثير من

---

(١) ديوان: السقاف، ص ٣٢.

(٢) شرح ديوان المتنبي ٤/٨٣.

(٣) القائد في وجدان الشعب، ١٦٦

(٤) القائد في وجدان الشعب، ص ٣٥٥.

(٥) م. ن، ص ٤٣٣

قصائد المديح التي قيلت في رئيس اليمن إلا وكأننا نقرأ قصائد المتنبي التي مدح بها الفارس العربي المجاهد سيف الدولة الحمداني حامي الثغور، وقاهر الروم، والتاريخ يعيد نفسه في شعر اليمن الحديث، فنحن نقرأ قصيدة مديح واحدة عبّرت بها مئات القصائد تعبيراً صادقاً عن قائدٍ ومجاهدٍ عربيٍّ، وحد اليمن، وأسس دولته الكبرى في العصر الحديث، وصنع من الإنجازات والمكاسب لشعبه ووطنه ما تبقى خالدة إلى أبد الدهر. غير أن الفساد المستشرى في اليمن، قد يؤثر على قيادته، ويحط من منزلته إذا لم يتخذ إجراءات حاسمة تجاه المخلين والعابثين.

لقد شكل شعر المتنبي نموذجاً فنيّاً عالياً ومثالياً لجميع الأنماط الشعرية العربية المتطورة، ومعيناً ثراً استقى منه شعراء اليمن سلامة الأداء وقوة التعبير ووضوح الفكرة وكان لشعره حضور في شعر اليمن الحديث،فضلاً عن مواقفه الجهادية المتميزة، والتي عبر عنها بصورة فنية متميزة، وعلى هذا عمد الشعراء إلى توظيف أبيات من قصائد للمتنبي، أو إلى استيحاء مضامينها، ليفصحوا عما يختلج في صدورهم من دون اللجوء إلى إيراد الأبيات كاملة، ولم تغب معركة الحدث التي صورها المتنبي في شعره عن الشعر اليمني الحديث،فقد عقد السقاف الصلة في قصيدة له وقصيدة المتنبي في معركة الحدث الحمراء، مستفيداً من المفارقة بين عصر المتنبي وعصره، وقد وظف الشاعر السقاف صورة جزئية من عناصر صورة المتنبي في وصفه لجيش سيف الدولة، بقوله:

خميسٌ بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أُذن الجوزاء منه زمازم [1]

وقال السقاف:

كأن كل خميسٍ في تموجه ... سيل يدحرج أجبالاً تدفقه [2]

فهو يشبه ضخامة الجيش وامتداد زحفه كما صوره المتنبي.. وفي هذا التوظيف دلالات كثيرة منها قوة الجيش وكثرته، فضلاً عن العزيمة، والإصرار نحو تحقيق النصر، فإذا كان هذا قد حققه سيف الدولة في معركة الحدث الحمراء، وألحق

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٣/٣٨٤ .

(٢) ديوان السقاف، ٤٠٩.

هزيمة كبيرة بالروم، فإن التاريخ يعيد نفسه وهذا ما قصد إليه السقاف بعد أن عمد إلى صورة متكونة من الجيش في وتموجه وشبها بصورة سيلٍ عرمرم يدحرج أجبالاً تدفقه، فجعل وجه الشبه صورة منتزعة من جوانب منتزعة الأجزاء في إطار متكامل لا يسهل فصلها.

وقد عمد الشعراء إلى تضمين أبيات أخرى للمتنبي، منها قوله:

والهجر أقتل لي ممَّا أراقبُهُ أنا الغريقُ فما خوفي من البَلَلِ[1]

فقد ضمن الشاعر صالح بن علي الحامد في قصيدته (سيد الوجود) بقوله:

أنا الغريق فما خوفي وما وجلي إذا أخذت بحبلٍ منك ممدود[2]

وكانت بعض ألفاظ المتنبي ومعانيها قد تكررت في قصيدة الحامد، إذ يقول:

لما خبت نار كسرى بات مرتبكاً محرق القلب في حزن وتسهيد

كما تكررت ألفاظ أخرى في القافية منها (السود، محمود، الأغاريد، الأماليد، الجلاعيد، المواعيد، تغريد، منكود، معبود، الصناديد، البيد، عنقود، المناكيد، الصيد، مولود، موعود... إلى ما هنا لك.)

من المعروف أن المتنبي كان أكثر الشعراء تأثيراً في الشعراء اليمنيين من دون منازع، ولعل هذه الملاحظة هي التي دفعتنا لكتابة هذا البحث، ولعل الشعراء لا يكتفون بمعارضة قصائده، واستعارة الأصداء الموسيقية لأوزانه وقوافيه، بل إنهم يتمثلون مواقفه في شعرهم، وقد جاراه الزبيري في كثير من قصائده، إذ يقول في قصيدته (صخرة):

مالي وللدنيا نزلتُ فِناءَها فاستقبلتني حربها الشعواءُ[3]

فقد تأثر الزبيري بموقف المتنبي في قوله:

فمالي وللدنيا طلابي نجومها ومسعاي منها في شدوق الأراقمِ[4]

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٣/٧٥.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة (على شاطئ الحياة)، ص٣٤٦ .

(٣) الأعمال الشعرية (ثورة الشعر) ١٦٣.

(٤) شرح ديوان المتنبي ٤/١١١. والأراقم: جمع أرقم وهو ضرب من الحيات.

ويبدو أن الزبيري أكثر حرصاً على الانتفاع بتراثية نص المتنبي حين يستدعي جزءاً أصيلاً في بناء قصيدته حتى بلغ به الأمر في قصيدته (ملحمة بور سعيد) أن يقول :

وَمَنْ يَطعَمُ الموت مِن نعلِهِ كمَنْ يطعمُ الموت مِنْ نصلِهِ[1]

فهو مشابه لتركيب بيت المتنبي القائل:

ومن في كفه منهم قناةٌ كمن في كفه منهم خِضابُ[2]

بل أقرب إلى قوله في البيت التالي:

فطعم الموت في أمر حقيرٍ كطعم الموت في أمرٍ عظيم[3]

ولم تغب صور الفخر التي حفل بها موروث المتنبي عن الشعراء اليمنيين الذين وظّفوا هذه الصورَ في نظمهم تحويراً أو تضميناً لمعنى، فالزبيري يفتخر بنفسه، فكأنه صورة لاعتزاز المتنبي بنفسه، ويجسّد طموحه في الانطلاقة التاريخية للأمة العربية، وافتخاره بصور نضالها في مراحل إشراقها وعطائها وانتفاضة الإنسان العربي من السيطرة الأجنبية فيقول الزبيري مفتخراً في قصيدته التالية التي كتبها لولي العهد أحمد بن حميد الدين سنة ١٩٤٣م:

أشدو فتصغي لي الدنيا وتهتف بي كأنني ملك بالشعر جبَّارُ

إذا مدحتك ظل الكون أجمعه كأنما هو أسماعٌ وأبصارُ

ما كان شعري أنفاساً أرُدُّدها لكنه عاصفٌ عاتٍ وإعصارُ

تراه في الحرب أسيافاً يلوح بها وجه الردى وهوعند السلم أوتار[4]

والمتأمل في هذه الأبيات يجد في جرس ألفاظها، وقوتها ما يتناسب وأجواء الفخر والاعتزاز التي رسمها المتنبي في كثير من قصائده، منها:

---

(١) الأعمال الشعرية "نقطة في الظلام"، ص٤٤٧

(٢) شرح ديوان المتنبي ٨٥/١ .

(٣) م.ن ، ١١٩/٤ .

(٤) شعر الزبيري، ١٢٥.

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ولا أعاتبهُ صفحاً وإهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيسَ غريبٌ حيثما كانا[1]
وما الدهر إلاَّ من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا[2]
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من بهِ صممُ[3]

وكذلك قال إبراهيم الحضراني:

لا أحب العيش إلا قمة إن تمت في الموت أعلى القمم[4]

وقد كان لهذه الصورة أثرها في وصف الهمداني لشعره، فقد قال في قصيدته (تمادي الأربعين):

أرسلته عبقاً في الكون مؤتلقا يجرر الذيل تيهاً يخرق الصمما
عصرته من حياتي خالداً أبداً محبة وهوى في الناس مضطرما
وسار في وهج الأحداث مشتعلاً ليلهب المجد في الإنسان والهمما
رسول شوقٍ إلى الدنيا بمن حملت مضمِّداً ألماً أو جامعاً أمما
يهدهدُ النور في بيداء مملكتي ويحطم الوجع المأفون والهرما
يسبي العقولَ ويهديها إلى أدب يفجِّر العز فينا يرفع العلما[5]

ولم يكن فخره بشعره في هذه القصيدة فحسب، ففي قصيدته (بشائر الوعد) يقول الهمداني من الكامل:

كم جاب فيك العمر شعري مغرما والشعر يهدر صوته متمردا
أهديك شعر الأمس واليوم الذي في نبض وحي الذكريات ترددا
قد سار شعري في هواكِ على المدى أصبحت في وصف الجمال مجودا

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٢٢٣/٤
(٢) م. ن ٢٩٠/١.
(٣) شرح ديوان المتنبي ٨٣/٤.
(٤) ديوان الحضراني ، ص ٢٤٢.
(٥) ديوان الهمداني، ص ٦٢- ٦٣

إنـــي رسمـــت الـــشوق في أحلامـــه شـعراً بـه ضـلَّ المـسافر واهتـدى[1]

وقوله:

أصوغ من وحي شعري فيك ملحمة تبقـى على الدهـر لا يغتالها الـسأم

لقد وفق الهمداني في توظيف موروث المتنبي في كثير من قصائده، فقد كان يضفي على أجوائها مناخاً نفسياً يفيد في تعزيز المعنى، وقد نجد تضميناً جزئياً" فالهدف من هذا توظيف الشحنة الشعرية المشهورة في قصيدة الهمداني لتمنحها عمقاً وتأثيراً مضاعفاً. ففي القصيدة نفسها يقول:

وهفـت تعـاطيني الوصـال وإنهـا قـد صـيَّرت كـل الـورى لـي حـسّدا[2]

وقد عمد إلى توظيف بيت المتنبي:

أزل حـسد الحـساد عـني بكبـتهم فأنـت الـذي صـيرتهم لـي حـسدا[3]

ويبدو أن كثيراً من الصور مشتركة بين الشاعرين،وتكرار ألفاظ بعينها أمرٌ لا مفر منه، وعلى الرغم من ذلك يبقى الابتكار بيِّناً والتفاوت ملحوظاً.

ولم أعرف شاعراً من شعراء العرب حظي من إعجاب الخاصة والعامة بمثل ما حظي به المتنبي، وبرغم الزمن الطويل الذي مر على وفاته، وتغير الأحوال، وتبدل المعايير الأدبية، وتباين أساليب الفهم، واختلاف الذوق فإن شهرته لم تخمد، ولا يزال اسمه سائراً على الألسنة، وشعره مضرب الأمثال ومستودعاً من مستودعات الحكمة"[4]. وقد تعددت آراء النقاد وتباينت في دراسة شعر المتنبي وأمثاله وحكمه على وجه الدقة والتحديد، وذهبوا بها كل مذهب، فلم يكتفوا باستخراج المقطوعات والأبيات التي يضرب بها مثل، بل حققوا الأمثال واستنبطوها من أنصاف أبياته منها:

---

(١) م. ن ، ص ٢٨.

(٢) ديوان الهمداني، ص ٢٧.

(٣) شرح ديوان المتنبي ١ / ٢٩٠.

(٤) هل كان المتنبي متديناً، (بحث) علي أدهم، ضمن كتاب (أبو الطيب المتنبي حياته وشعره)، مجموعة من المؤلفين، ص ٨٩ .

أبياته منها:

مـــصائب قـــومٍ عنـــد قـــومٍ فوائـــدُ[1]

- ومـــن قـــصد البحـــر اســـتقل الـــسواقيا[2]

وخـــيرُ جلـــيسٍ في الزمـــانِ كتـــابُ[3]

إنَّ المعـــارف في أهـــل النهـــى ذمـــمُ[4]

وربمـــا صـــحَّت الأجـــسام بالعلـــل[5]

إذا عظـــم المطلـــوب قـــلَّ المـــساعدُ[6]

ويستـــصحبُ الإنـــسان مـــن لا يلائمـــه[7]

وفي عنـــق الحـــسناء يـــستحسنُ العقـــدُ[8]

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٣٧/١.

(٢) م. ن ٢٨٧/٤.

(٣) شرح ديوان المتنبي ١٩٣/١

(٤) م. ن٣٧٥/١.

(٥) م . ن ٣ /٨٦..

(٦) م. ن٣٧٠/١.

(٧) م . ن ٣٢٧/٣. م . ن

(٨) م. ن١٠/٢.

obeikandi.com

أنـــا الغريـــق فمـــا خـــوفي مـــن البلـــلِ[1]

ولـــــيس كـــــل ذوات المخلـــــب الـــــسبع

لـــيس التكحـــل في العيـــنين كالكحـــلِ[2]

إن النفـــــيسَ غريـــــبٌ حيثمـــــا كـــــانَ[3]

في طلعـــة الـــشمس مـــا يغنيـــك عـــن زحـــلِ[4]

ومـــــن فـــــرح النفـــــس مـــــا يقتـــــل[5]

وقد ربط المتنبي في جانب واسع من أشعاره بين الثورة والتوجه القومي العربي، إذ اتخذت بعض قصائده محوراً مهماً في شعر اليمن الحديث، ونلمح هذا واضحاً في بيت للشاعر علي لقمان:

مأســـاةُ شـــعبٍ في الحيـــاة معـــذّبٌ ملـــهاةُ شـــعبٍ مـــستفيد نـــامِ[6]

ففي هذا البيت يستوحي الشاعر معنى قول المتنبي:

بـــذا قـــضت الأيـــامُ مـــا بـــين أهلـــها مـــصائب قـــومٍ عنـــد قـــومٍ فوائـــدُ[7]

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٤/٢٨٢.

(٢) م . ن ٣/٨٧.

(٣) م . ن ٤/١٢٣..

(٤) شرح ديوان المتنبي٣/٨١..

(٥) م . ن ٣/٦٩..

(٦) صحيفة الصباح الأسبوعية الجديدة، ١٩٧٢م ، ص نقلاً عن الأبعاد الموضعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، ص ٤١٣.

(٧) شرح ديوان المتنبي، ١/٣٩٩

obeikandl.com

وحينما عمد المتنبي إلى تصوير الهم وقدرته على اخترام الجسيم في قوله:

والهـــمُّ يخـــترِمُ الجـــسيمَ نحافـــةً ويـــشيبُ ناصـــية الـــصبي ويهـــرمُ

استثمر الهمداني مضمون هذا البيت في قصيدته(الوداع)، إذ يقول :

والمـــوت يختـــرمُ النفـــوس ومـــا درى أن الحيـــــاة مـــــودّة وذمـــــامُ[1]

وقـد يتمنـى المـرء مـا لـيس عنـده وقـد تـسعف الإنـسان يومـاً مطالبـه

وقـد يبلـغ الغـر الجبـان مـراده وقـد تقتـل العـف الـضمير رغائبـه

وقـد تـسحق العقـل الـسليم وشـاية وقـد تقتـل الإنـسان يومـاً مواهبـه[2]

فالشاعر من دون شك يحذر أبناء قومه من فتن الأعداء، وزيفهم، وحقدهم الدفين.

ولعل من أسباب سلوك نصوص الهمداني لطريق معارضة نصوص للمتنبي هو الإعجاب بتلك النصوص لما تملكه من إيحاء وأسلوب أو شهرة انجذب إليها ذوقه ودفعه يحاكيها ويدور في فلكها، فضلاً عن شخصية المتنبي الذي شغل الناس وملأ الدنيا، وعلى هذا كان نوعية العلاقة التي تقوم عليها النصوص المتعارضة حيناً والمتداخلة أحياناً أخرى هي علاقة التبجيل والاحترام والتضافر والتعضيد ودرجة التقارب فيما بينها تكون كبيرة والتركيب متشابه، والمقصدية تتجلى في المواقف، ولعل موقف المتنبي مشهودٌ له فهو القائل والثائر والفارس والمجاهد وما خاب أبداً من عارضه أو حاكاه، لأن من اقتفاه سيجسِّد من دون شكٍّ مواقفه. ويضفي عليها رؤية معاصرة لمعالجة الواقع المعاصر.ولا ضير فقد قدم الشاعر الهمداني في هذا العصر جهداً جهيداً فقد ارتبط اسمه بالإبداع الفني فضلاً عن هموم أمته ووطنه وما تتعرض له الأمة من تحديات خطيرة، فكان الهمداني خير من عبر عن تلك القضايا لا في قصائده فحسب، بل في كل كتابته النقدية والأدبية

---

(١) ديوان الهمداني، ص١٧٧- ١٧٨.

(٢) م . ن ٢٣ .

التي نافت على العشرين كتاباً موزعة على المجالات الأدبية والمسرحية والشعرية والترجمة، فضلاً عن الدراسات النقدية العميقة.

كذلك تأثر الشاعر إبراهيم الحضراني بالمتنبي، ومجده الشعري الذي يثير الهمم، وحكمه التي أحسن حبكتها، ومنها:

إذا مـــا النّـــاس جـــربهم لبيـــبُ ... فـــإني قـــد أكلـــتهم وذاقـــا

فلـــم أرَودَّهُـــمْ إلا خـــداعاً ... ولم أر ديـــنهم إلاّ نفاقـــا[1]

لقد تمرد المتنبي على عصره وأدان بعض مظاهره ورفضها، إذ يقول:

ومـــن عـــرف الأيـــام معـــرفتي بهـــا ... وبالنـــاس روَّى رمحـــه غيـــر راحـــمِ

فلـــيس بمرحـــومٍ إذا ظفـــروا بـــهِ ... ولا في الـــردى الجـــاري علـــيهم بـــآثمِ[2]

فقد استمد الشاعر الحضراني من هذه الأبيات فكرتها ومعانيها، وصاغ منها نظمه في مقطوعته التي يقول فيها:

هـــم النـــاسُ لا يحفظـــون الجميـــلَ ... ولا يـــشكرون لمـــسدٍ يـــدا

فكـــن في قلوبهـــم رهـــبةً ... لكـــي مـــا تكـــون لهـــم ســـيّدا

ولا تـــبنِ أمـــراً علـــى حبـــهم ... فيـــذهب جهـــدك فـــيهم سُـــدى

هـــم النـــاس مـــا عبـــدوا في القـــديم ... عظـــيم النـــوال كـــثير الجِـــدَى

ولكنـــهم عبـــدوا المفزعـــات ... وباتـــوا لرهبـــتها سُجّـــدا [3]

أما البردوني فقد ضمن موروث المتنبي في كثير من قصائده تضميناً كاملاً يضفي على أجوائها مناخاً نفسياً يفيد في تعزيز المعنى، وقد نجد تضميناً جزئياً "

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٣٠٣/٢.

(٢) شرح ديوان المتنبي ١١٢/٤ .

(٣) ديوان الحضراني، جمع وتحقيق وتقديم علوان مهدي الجيلاني،ص٢٤٥. وينظر: القطوف الدواني، ص١٥٨. وينظر: شعراء اليمن المعاصرون، ص ٦٤. وإبراهيم الحضراني الإنسان والشاعر، ص٨٦.

فالهدف في كلا الأمرين واحد، وهو توظيف الشحنة الشعرية المشهورة في القصيدة البردونية لتمنحها عمقاً وتأثيراً مضاعفاً .ففي قوله:

فمن لم يمت في الجهادِ النبيل يمت خافت الأنف في المرقدِ[1]

نجده قد تأثر تأثيراً مباشراً بقول المتنبي:

يأنفُ من ميتة الفراشِ وقد حلَّ به أصدقُ المواعيدِ[2]

وربما تأثر بقول ابن نباتة السعدي:

ومن لم يمت بالسيفِ مات بغيرهِ تنوَّعت الأسبابُ والداءُ واحدُ[3]

ويرد هذا البيت على ألسنة معظم القراء على أنه للمتنبي، وهؤلاء جميعاً تأثروا بقول أمية بن أبي الصلت:

من لم يمت غبطة يمت هرماً للموت كأسٌ والمرء ذائقها[4]

فالمتنبي كما يقول الدكتور مهدي علام له آراء "في الموت إسلامية بل قرآنية يقدر فيها أن الموت مصير كل حي لم ينجُ منه قيصر ولا كسرى، ولا ذو مال ظنَّ أن مالَه يغني عنه شيئاً، ولا بطل مغوار ضاقَ الفضاء بجيشه"[5]. ولا نستبعد أن الشعراء قد تأثروا بطرفة بن العبد القائل :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المُرخى وثناياه باليدِ[6]

---

(١) ديوان عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية (من أرض بلقيس) ١٩٣/١.

(٢) شرح ديوان المتنبي ٢٦١/١.

(٣) ديوان ابن نباتة السعدي: ١٨٧/١ . وينظر: وفيات الأعيان، ١٩٣/٣ .

(٤) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره ، ص ٢٤١.

(٥) فلسفة المتنبي من شعره، د. مهدي علام، ١٦، نقلاً عن المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ٤٠١.

(٦) ديوان طرفة بن العبد،ص ٥. والطول: الحبل الذي يطوّل للدابة فترعى فيه الإرخاء: الإرسال. الثن: الطرف. جعل الموت بمنزلة صاحب الدابة التي أرخى طولها فمتى شاء الموت قاد الفتى لهلاكه، ومن كان في حبل الموت انقاد لقوده.

ولكن لا يعني أن هذا المعنى وردَ في الشعر فقط، ففي كل هذه الأبيات إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ.....﴾ النساء: ٧٨. كما جاء المعنى نفسه في قول الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): "بادروا إلى الموت الذي إن هربتم منه أدرككم وإن أقمتم أخذكم"[١]

ومن هذه الرموز (أبو لهب)، فقد جعل منه البردوني رمزاً حياً لم يمت، وجعل منه رمزاً للحكام العرب المعاصرين الذين أساءوا إلى شعوبهم، بعد أن تقربوا من الأعداء على حساب الشعب العربي، وبعد أن باعوا ضمائرهم، وقدموا لعدوهم هدايا مجانية من دون مقابل. إذ يقول في قصيدته (أغنية من خشب):

لماذا العدوُّ القصيُّ اقترب؟ لأن القريبَ الحبيبَ أغتربْ
لأن الفراغ اشتهى الامتلاءَ بشيء فجاء سوى المرتقب
لأن (أبا لهب) لم يمت وكل الذي مات ضوء اللهب
لماذا الذي كان ما زال يأتي؟ لأن الذي سوف يأتي ذهب[٢]

ففي هذه القصيدة نلمح أثر المتنبي في تهكّمِهِ على الأعاجم، وعلى الذين ارتأوهم حكاماً لهم، فقد قال:

أرانبُ غير أنهمُ ملوكٌ مفتحةٌ عيونهُمُ نيامُ
بأجسامٍ يحرُّ القتل فيها وما أقرانها إلا الطعامُ[٣]

وقال أيضاً:

وإنما الناسُ بالملوك وما تُفلِحُ عُرْبٌ ملوكها عجمُ
لا أدب عندهمُ ولا حسبُ ولا عهودٌ لهم ولا ذممُ[٤]

وفي البيت الأخير للبردوني تحوير لقول المتنبي:

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ٢٤٨/١ .

(٢) ديوان البردوني، الأعمال الشعرية (السفر إلى الأيام الخضر) ٦٦٢/١- ٦٦٦ .

(٣) شرح ديوان المتنبي ٧٢/٤- ٧٣ .

(٤) م ٠ ن ٥٩/٤ .

إذا كنت ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازمُ[1]

وتعد قصيدة المتنبي التي هجا بها إسحق بن إبراهيم الأعور مورداً عذباً استقى منه قصائد الشعراء ما يؤدي مهمته في استثارة أبناء الأمة لرد الخصوم وإذلالهم، ولعل تركيز الشعراء قد انصب في هذه القصيدة، فضلاً عن بيت القصيد منها:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتَّى يراقَ على جوانبهِ الدَّمُ[2]

والمتنبي يؤكد أن العلي المنزلة محسود في قومه، وعند خصومه، فلا يزال يرمى بالمكاره، ولا يبرأ شرفه من الأذى حتى يسيل الدم من جوانبه، وعلى هذا فقد يبعث الاحتفاظ بالشرف على سفك الدماء، وإزهاق الأرواح.

والبردوني في قصيدته (حكاية سنين) يعقد الصلة بينه، وبين المتنبي في كثير من المواقف والأحداث، فضلاً عن معركة الشرف الحمراء مستفيداً من المفارقة الموجودة فقال:

وهتفت أغانيها تضجُّ "ليسلم الشرف الرفيع"[3]

فهو يشير هنا إلى انتصار الثورة، وإذا كان المتنبي قد رأى أنَّ الشرفَ الرفيعَ لا يسلم حتى يراق الدم على جوانبه، فإن البردوني أخبر المتنبي أنَّ الدمَ أريقَ ليسلم الشرف الرفيع. وفي قصيدته (سباعية الغثيان ..الرابع) لم يعبر البردوني عن معاناة العروبة والإسلام في هذا العصر فحسب، بل نرى الحزن قد شاطر معظم أبيات القصيدة التي تربو على ستين بيتاً وفي الوقت نفسه لم يغب عن باله الشاعر المتنبي العظيم فقد خاطبه وضمن أبياتاً له، ووظف مضامين مهمة في أكثر من ثمانية أبيات منها:

فيا (احمد بن الحسين) انهمر سوى الدمع ناداك غير الطللْ

---

(٥) شرح ديوان المتنبي ٣٨٢/٣

(١) م. ن ١٢٥/٤.

(٢) ديوان عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية (مدينة الغد) ١/ ٥٧٣.. للاستزادة ينظر: أثر التراث في شعر عبد الله البردوني(رسالة ماجستير)، فاطمة عبد الله محمد عبد الحبيب، ص ١١٣.

أغـــار (الدمـــستق)؟ بـــل وامتـــطى ... إلى ظهرنـــا وجهنـــا وانتعـــلْ

سِـــوَى الـــروم روم، وروم أتـــوا ... كعهـــدك رغـــم اخـــتلاف العلـــلْ

أتعرفهـــم إنهـــم مـــن رأيـــت ... وإن غـــيروا خيلـــهم والخـــولْ

❖❖

و(عبـــد الـــخنى) نفـــس عبـــد الخنـــى ... وإن عَـــصْرَنَ الـــشكلَ واســـمَ الحُلَـــلْ

و(كيـــسنجر) الـــيوم نخاســـه ... لأن النخاســـة صـــارت دولْ

❖❖

وأحفـــاد (ضـــبَّة) أضـــحت لهـــم ... جـــلالات ملـــك وجهـــل أجـــل

وحـــين يـــسود الغبـــاء الثـــري ... تكـــون العمـــالات أجـــدى عمـــل

❖❖

ممالكنـــا اليـــوم قامـــت علـــى ... ذيـــول العـــصي لا رؤوس الأســـل

ورغـــم العـــصي لا تقـــول الجمـــوع ... كأجـــداها الخـــير (فيمـــا حـــصل)

❖❖

ورغـــم الكوافـــير لا أنطفـــي ... لعـــل احتراقـــي يـــذيب الفـــشل

أمـــا كـــل جـــار أتـــى كـــي يجـــيء ... ســـواه . . . لكـــل بـــديل بـــدل[1]

ففي البيت الأول إشارة إلى مطلع قصيدة المتنبي :

أجـاب دمعـي ومـا الـدَّاعي سـوى طلـلِ ... دعـا فلبَّـاهُ قبـل الرَّكْـبِ والإبـلِ[2]

وفي البيت الثاني من هذا المقطع يذكر الشاعر اسم الدمستق، وهو قائد الروم في حروبهم مع سيف الدولة، وقد ورد في كثير من سيفيات المتنبي، وفي البيت الثالث ضمَّن الشاعر قول المتنبي :

وسِـوى الـرومِ خلـفَ ظهـركَ رُومٌ ... فعلـى أيّ جانبيـكَ تميـلُ[3]

---

(١) ديوان البردوني، الأعمال الشعرية (زمان بلا نوعية) ٢ /٨٥٦- ٨٥٧ .

(٢) شرح ديوان المتنبي٣/ ١٨٢.

(٣) شرح ديوان المتنبي، ١٥٧/٣

فالمتنبي في هذا البيت يخاطب سيف الدولة طالباً منه أن يتوخَّى الحيطة والحذر بعد أن كثر أعداؤه من الروم وغيرهم ممن يخلفه من أمراء المسلمين، فهم روم يتربصون بك، وقد ظل هذا الصوت لوحة متجددة في قصائد أغلب الشعراء ليؤدي مهمة التنبيه إلى القوى الغاشمة والعناصر الخبيثة التي تتحين الفرص لتنفيذ أساليبها الملتوية، التي تهدف إلى تفتيت الوجود العربي وطمس معالمه.

وقد نعت الشاعر كافور الإخشيدي بـ(عبد الخنى)، وقد ورد هذا في هجائيات المتنبي له، وفي البيت الثامن ورد اسم (كوافير) جمع كافور مشيراً إلى كافور الإخشيدي، والى كثرة الكوافير في هذا العصر، ولعل التركيز على تجربة المتنبي مع كافور، وما واجهه عنده إلا تركيز على سوءات كافور وخذلانه والبردوني مع إدراكه لخطورة كافور، فإنه يرى أن الواقع المعاصر في وضع لا يحسد عليه، وفي حالة سيئة يرثى لها، والسبب بوجود كوافير كثيرة، ومتنوعة في هذا العصر، ولكن لا يعني أن البردوني أحبطنا، وأفقدنا التفاؤل، ولكنه أعطى لنا بصيصاً من الأمل بعد أن ركز على طموح المتنبي، فضلاً عن ذكره لرموز فاعلة وعلى وجه التحديد سيف الدولة، وفي هذا التوظيف دلالة معادة في النص المعاصر بعد أن بدت ملامح شعر المتنبي ماثلة للعيان في قصيدة البردوني، والتي توزعت في ثناياها مواقف المتنبي في كثير من مراحله .

وفي البيت السابع من المقطع ورد اسم قبيلة (ضبة) مهجوة المتنبي وقاتلته أيضاً ،وهي على جانب كبير من الغباء والوحشية كما أشار الشاعر .

وفي البيت التاسع إشارة إلى مطلع لامية المتنبي :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقبل[1]

ومن حكم المتنبي الذائعة:

من يهُن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميّتٍ إيلام[2]

---

(١) م. ن ١٦٣/٣

(٢) شرح ديوان المتنبي، ٣٧٧/٤

إن النتاج الشعري يمثل الخزين الفكري للشاعر متفاعلاً مع التجربة التي تستقله وتبلوره وبحسب نوعها، وبهذا يكون خزين الخبرة العامة هو المادة التي يغترف منها الشعراء، وهي الإطار العام لتجربة البردوني في كثير من قصائده.

وقد كان لبيت المتنبي هذا أثره في قصيدة إبراهيم الحضراني (الرئيس جمال جميل العراقي)، كان قد رثى بها زميله الشهيد العراقي جمال جميل الذي قَدمَ إلى اليمن لتدريب جيش الإمام يحيى، وكان من أبرز الضباط، وقد آثر البقاء في اليمن، وعمل بإخلاص مع زملائه الأحرار،وكان أحد طلائعهم، ومن قادتهم،وقد واصل النضال حتى سقط شهيداً في اليمن دفاعاً عن الثورة، وكان أحد طلائع الأحرار اليمنيين، إذ يقول الحضراني:

حقـــرت مـــصابـك ويلـــها أم أنهـــا حـــسبتـــه جرحـــاً مالـــه إيـــلام[1]

كذلك الحال عند المقالح الذي كان أكثر الشعراء مقدرةً على استحضار الصور من التراث الشعري والإبانة عن مصدرها وأصلها القديم، وفي قصيدة المقالح "السفر في الذاكرة الأبجدية "والتي أهداها إلى روح الشهيد "علي عبد المغني"عمد إلى تضمين أبيات من الشعر القديم منها تضمين للعجز الأخير من بيت المتنبي(ما لجرحٍ بميت إيلام) [2]

ولا ريب في أن نلمح الأثر نفسه في قصيدة عبد الرحمن فخري (رقصة السيف والخيط الرفيع) والتي نقتطع منها هذا المقطع:

قال الراويْ

فيما قالْ

كان الأجدادُ بلا شعرٍ،

في سوق الشعرْ

يبكون " أبوللو" في الأطلالْ

وجواري الحرفْ

---

(١) ديوان الحضراني، ص ٤٣٣، وينظر: القطوف الدواني، ص ١٤٨.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ٢/٦٥٤ .

ويغنونَ ظريف الألحانْ

وينام الليل من الضحكاتْ عند الأقدامْ

وينامُ الشعرْ..فالشاعر أبله في القصرْ،

بين الندمانْ الشاعر مأجور الحرفْ،بين الأقنان،

يبني الكثبان من الزيفِ،

باسمِ السيف:

(طَرْفُ الأعينِ قاتِلُنَا)

قد قال الجد .

غزلٌ مكتوبٌ بالسِّيفِ،

وبحبر الموتْ

والغزلُ تُفَّاحُ الضِّيفِ،

في بيتِ الشِّعرْ.

(خيلٌ، ليْلٌ، بيداءْ

سيفٌ، رُمْحٌ، وقلمْ)

فالقلم أخِيْرٌ في الأرقامْ

القلمُ سلامْ

القلمُ سلامْ

والسيف بلا شكٍّ ظافرْ

جَدِّي، يا جَدِّي العاشرْ

سيفُكَ (أصدقُ إنباءُ)

من كتب العصر.

فقد استلهم الشاعر قول جرير:

obeikandl.com

إن العيـــون الـــتي في طرفهـــا حـــور قتلننـــا ثـــم لا يحـــيين قتلانـــا[1]

وهذا البيت الغزلي يعد عند كثير من النقاد (أغزل بيت شعري) وقام بتحويل الغرض في الخطاب الشعري من الغزلي عند جرير إلى استصراخٍ في مواجهة التحديات، وهذا يعد من الظواهر التي منحت القصيدة المعاصرة بعداً فنيَّاً في قلب الصورة التراثية ودلالتها واستنباط صورة جديدة ذات مضمون مغاير للأصل.

وحينما نرجع إلى قصيدة فخري نجده يستعيض بأكثر من شاعر، ويحور بعض المعاني الأدبية التراثية إلى أن يلبي واقعه المعيش، وإن كان قد اتكأ على قولين مهمين لشاعرين كبيرين هما (أبو تمام والمتنبي) مستلهماً من هذا التوظيف قصيدتين لكل واحدة منها أحداثها ووقائعها وشخوصها، فضلاً عن الدلالات الأخرى. فاستلهم من أبي تمام قوله من قصيدته التي مدح بها الخليفة المعتصم، بعد انتصاره الكبير في معركة (عمورية) ومطلعها:

الـسيف أصـدق أنبـاءً مـن الكتـبِ في حّـدهِ الحـد بـين الجـد واللعـبِ[2]

فقد أفاد الشاعر من التضمين في خلق دلالة أو دلالات معاصرة، متخذاً من المضمون الأدبي ركيزة أساسية لتلبية مطالب عصره . في حين استلهم من (المتنبي) ما يعزز القوة والمجابهة والجرأة والشجاعة بأنواعها ومعانيها ودلالاتها مركزاً على قوله:

الخيـل والليـل والبيـداء تعـرفني والـضرب والطعـن والقرطـاس والقلـمُ[3]

كثيراً ما نكرر في حديثنا (التاريخ يعيد نفسه) و(ما أشبه الليلة بالبارحَة)، فإذا كانت الأمة في عصر المتنبي تمر بمأساة كبيرة، فإنها تمر في عصرها هذا بمئات من المآسي، هذه من المسلمات التي جعلت الشعراء يتأثرون بالمتنبي، وقد ارتبط شعر اليمن الحديث بالتراث والثورة في أغلبه الأعم وإلى إرث المتنبي وزمنه المتجدد على وجه الدقة والتحديد، ودليلنا في ذلك قصائد الشعراء، فقد تزامنت مع أحداث تاريخية مزدحمة ومنعطفات مهمة، وأدى ذلك إلى استلهام ما كان يروى عن

---

(١) نقوش على حجر العصر، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٢) ديوان أبي تمام، ص٤٠.

(٣) شرح ديوان المتنبي ٣/٣٦٦- ٣٧١.

تلك الأحداث، لاسيما أن الهمداني قد عاش في خضمها وتجاذبته أطرافها، والدليل الآخر على ذلك أن شعر اليمن يسجل أنموذجاً للشعر الملحمي في الشعر العربي الحديث، وعلى هذا لم يكن أمام الهمداني من بد من اللجوء إلى شعر المتنبي، لأن في شعره ما يلبي هذا الطموح لما فيه من عنفوان ثوري وجهادية فاعلة، فكان المحفز له لتصعيد نضاله، وقد اتخذت بعض قصائده محوراً مهماً في شعر الهمداني، نسج عليه كثيراً من مضامين قصائده بصورة مستمدة من رؤى الأحداث المعاصرة، وتعد قصيدة المتنبي (واحر قلباه) التي عاتب بها سيف الدولة الحمداني مورداً عذباً تستقي منه قصائد الشاعر لتؤدي دورها في استثارة أبناء الأمة لإذلال الخصوم والاستهانة بهم، فضلاً عن الوشايات وخطرهم الكبير على مقومات الأمة، ولعل تركيز الشاعر على هذه القصيدة قد انصب في قوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلمُ[1]

فقد أفاد الشاعر من التضمين في خلق دلالة أو دلالات معاصرة، متخذاً من المضمون الأدبي ركيزة أساسية لتلبية مطالب عصره، وقد استلهم من (المتنبي) ما يعزز القوة والمجابهة والجرأة والشجاعة بأنواعها ومعانيها ودلالاتها مركزاً على قصيدته (تمادي الأربعين) في قوله:

هبني حياة تعيد الحب في بلدي كي أحمل السيف والقرطاس والقلما

وقد استنجد الهمداني بهذا القول بعد أن رأى ما رأى من ضعف وغفلة معاصريه من الحكام واستكانتهم. ولعل تأثر الهمداني بالمتنبي ليجسد البعد القومي الذي ارتآه في مراحل مهمة من حياته، وقد برز هذا البعد في كثير من قصائده إيماناً منه بوحدة الأمة من جهة وشعوراً بضرورة تحققها في مجابهة العدوان من جهة أخرى، ويلتحم البعد القومي بصورة أجمل في قصيدة (التتار في بغداد) للشاعر الهمداني. التي ستقف عليها في الفصل الثاني من الكتاب هذا.

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٣/٣٦٦- ٣٧١.